مَوتُ النشيد
بين زَقُّورة أُور وساحة التحرير

شوقي عبد الأمير ❖

- ١ -

نحنُ الراحلينَ عن بلادٍ بين نَهرين
رُعاةَ الإكسير
الهالكينَ على أرصفة القوافي
المُزدهينَ بأردية المطلق والعراء
المعلّقينَ من الحناجرِ بأشعّة الشمس الغاربة
الجوّالينَ بين المدائح والهُوسات والارتجالات
خرافَ الجنان وأسرابَ طيورِ النشوة
المُقعدينَ في الذُرى وفي الآبار
النائمينَ على صُدورِ القصائد
نَرضَعُ حليبَ الإقامة وكرْمَ الدهشة
الحاملينَ نُعوشَنا على الشفاه
المدفونينَ في أسرّةٍ كالأرضِ الموعودة
عناقيدَ المرارات
وأقداحَ الغياب
سلالةَ النشيد الرافديني،
الذي يموتُ بين أيدينا الآن
نحنُ.

- ٢ -

الليلةَ
نُنزلهُ من أعلى الزقُّورة
في أُور،
حيثُ غَسَلت الكاهنةُ / القابلة
أطرافَهُ وجبينَهُ بالأشعّة القمريّة
عند الولادة
بعد أن تركتْ رأسَهُ
يتدلّى إلى الأرض
ورفعَتْ قدميه إلى السماء
كعادة الأمّهات في سومر.
هناك، من الشرفة المطلّة
على شواطئ البحر الجنوبيّ
التي لم يبقَ منها
إلاّ الملحُ، الزبدُ المتحجّر،
سأُعيدُ صَرخةَ الإله إنكي بوجه الغراب:
أن افعلْ شيئًا لهذه الجثة القمريّة
قبل أنْ يَتهشّمَها
الدودُ والملحُ والعفَن!
سأصنعُ تابوتًا
من صفائح الخشب التي يتركُها البقّالونَ
ليلاً على الأرصفة
ومن جُذوع النخل العائمة على الفرات
أُغطّيه بإزار القُرويين المُفرقع الألوان
قبل أن أضعَهُ على سطح سيّارة الشيفروليه
السوداء
الأميركيّة المحدودبة الظهر مُوديل ١٩٤٩
تَنضَحُ مقاعدُها المترمّلةُ
بروائح التبغ والعرق والكافور
وتتكدّسُ فوقها النادباتُ بعباءاتهنَّ السوداء
وأنينهنَّ الذي لا يهدأ
مع أزيز موتور السيّارة
تقطعُ الطريقَ الإسفلتيَّ
المرصّعَ بالحُفر والصخور والنزيز
بين أور و«سوق الشيوخ.»[1]
أمضي بموكبي هذا
إلى مَدرسة الفرات الابتدائيّة للبنين

❖ زقّورة أور هي معبد القمر السومريّ، يعود تأريخُه إلى ٢٥٠٠ قبل الميلاد. أما ساحة التحرير فهي أحد رموز ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي أسقطت الملكيّة.

(١) مسقط رأس الشاعر.

أقفُ به في صَفٍّ واحدٍ مع التلاميذ
قبل انطلاق صفّارة الدرس.
ومن ثمَّ إلى المعامل والمحافل والأسواق؛
إلى مقرّات الحزب الشيوعي العراقي
المزدحمة بصور الشهداء مثل صُرر القرويّات
بالملابس القديمة والخرق الملوّنة،
إلى القيادات القطريّة والقوميّة لحزب البعث
المزدانة بصُور الزعماء التأريخيين
أبطال الهزائم المنكرة والمذابح الجليلة،
إلى المحافل الدينيّة والمواكب الحسينيّة
المنكوبة بقتلى مَعركة الطفّ
حيثُ الدماءُ والدموع لم تجفّ منذ ١٤٠٠ عام،
إلى مجالس الذكر لـ«الإخوة المسلّحينَ»
حتى الأضراس والمصفّدينَ بالأحزمة
الناسفة،
أَتسلقُ وإيّاهُ سلالمَ القصائد العموديّة
والمقامات الموسيقيّة البغداديّة
نَدخلُ معًا مقاهي وحانات الشُعراء المحدثين
والمتصعلكين
نصلّي في جميع المساجد والكنائس
والحُسينيّات
خَلفنا تَصطفُّ ألوفُ المصلّينَ
بأذرعهم المعقودة على الصدر
أو المُسدلة على الجانبين
لأعلنَ باسم أولاءِ جميعًا -
للزعماء وللأعيان
للرعاع وللدهْماء
للعلاّسين وللصكاكين [1]
أعظمَ يوم للحداد
يومٌ لا يعانقُ فيه القاتلُ إلاّ القاتلَ
والقتيلُ إلاّ القتيلَ،
لتبدأ أمُّ المسيرات
حيثُ كلُّ خطوةٍ حدادٌ لألف عام
وكلُّ صَيحةٍ عَزاءٌ لألف عام.
مَسيرةُ الأعوام الرافدينيّة هذه
تَتدافعُ فيها الحَشودُ
من الأزقّة والحارات والجسور
ومن أحشاء المقابر الجماعيّة
تحُفُّ بها نسائم آدميّةٌ ظلّتْ في الهواء
لأجسادٍ انتقلتْ على حين غفلةٍ إلى الغبار.

- ٣ -
المسيرةُ تتّجهُ جنوبًا؛
فالجنوبُ هو المقبرةُ في سومر
مثلَ الغربِ في «طيبة» الفرعونيّة.
لا بدَّ أن نحفرَ قبرًا لهذا النشيد
قبرًا لن يكونَ
على أبواب صحراء النجف -
فذلك عَدَمٌ مُنحاز -
ولا في جبّانةٍ على دجلة -
فذلكَ ماءٌ
رأى واكتفى وسالَ -
ولن يكونَ
قربَ ضريح إمامٍ أو وليّ -
فتلكَ شواهدٌ لم تزلْ
تفتكُ بالأحياء.
والنشيدُ الرافدينيّ
لم يكن يومًا نبيًّا، لا قدّيسًا، ولا كاهنًا
بل كان أبًا
لكلِّ الأنبياء والقدّيسينَ والكَهنة
إلاّ أنّهُ لم يَترك وصيّةً ولا مُريدين
ليستْ لهُ آياتٌ ولا فراقين
لا يأبهُ بشاهدةٍ ولا بحضرةْ
لا بأحرفٍ كوفيّةٍ ولا بمَراثٍ
ولا حتى بذكرِ سنةِ ولادةٍ أو وفاة.

- ٤ -
لا جَسَدَ لهذا الجثمان
فهو نُطفةٌ تارةً وأمةٌ أُخرى.
وسيتوجَّبُ علينا الآن
أن نُهيلَ فوقَهُ السماءَ أو التراب
الفجرَ أو الليلَ.
حَفيدُ الآلهة وسَليلُ كلِّ القتلى هذا
سيكونُ دفنُهُ معراجًا بالأحرى!
لذا سَنَضْرمُ فيه النارَ كما تفعلُ الهنودُ
ونذرو رمادَهُ فوقَ القباب والمآذن والأجراس.
لكنّ حرقَ الجثث لم يكُنْ يومًا
من تقاليد هذي البلاد
كما أنّ نارًا عظيمةً تنتظرُهُ
في الماوراء أو في الماسماء

(١) العلاسون والصكاكون: كلمتان جديدتان بمعناهما العراقيّ. الأولى تعني الخاطف، والثانية تعني قاتل المخطوف.

كما يَدّعون..
أم نتركُهُ على إحدى القمم
نهبًا للطيورِ الكاسرةِ والأغربةِ الجائعة؟
لكنّ جَدثًا كهذا
ستَلْتَحفُ به في الأعالي
الصباحاتُ والليالي،
الأصائلُ والأفجارُ،
ستَرتديه الجبالُ معطفًا أسودَ
لتُعلنَ حِدادَ الأرض.

- ٥ -

العدّةُ مُكتملةٌ على مَشارفِ العدم
ولا مَكانَ،
لا حُضنَ في الأرضين
للقاءٍ كهذا.
تُرى هلْ سنعودُ به إلى الرّحمِ الأوّلى
إلى أُرومةِ النصِّ
حيثُ يرقدُ آباؤُهُ جميعًا؟
لكنْ لا تعودُ جُثةٌ إلى رَحمٍ
فالرحم لا تَقبلُ الموتى..
وهنا سيُحاولُ الشعراءُ
سرقةَ الجثةِ من موتِها
كأنْ يَرتدوا عراءَها
ويخدعُوا الناسَ بشَظفِ بهائِها.
خطرٌ حقيقيٌّ هذا
في بلادٍ تَنبتُ فيها طائفةٌ من المفتُونينَ
كالفطْرِ في الغاباتِ بعدَ المطر
وتحتَ أقواسِ القُزَحِ
سيُهرولونَ جميعًا،
يَغمُسونَ ريَشَهُم في مَحاجِرِها
ليدَّعوا أنّهم يكتُبونَ بحبرِ الرؤيةِ والتجلّي
ولن يَتورّعوا أن يُوهموا السابلةَ والرُعاعَ
أنّ الجثّةَ ما زالتْ تَحيا بين ظُهرانينا
تمامًا كما كانت تَفعلُ السَحَرةُ في أُور
فيَمسخُوا الأحياءَ مقابرَ وشواهدَ متنقّلة ـ
تلكَ صيغةٌ عبقريّةٌ للدفن،
أعترفُ لهم بذلك.
لكننا، ومنذُ عهدٍ بعيد،
صِرنا مَدافنَ مُزدحمةً
بالأحبّةِ والشهداءِ والراحلينَ
ولم نعُدْ نَقدرُ على حَملِ جثمانٍ عظيمٍ كهذا.
أولاءِ الشعراءَ يرقاتٌ رحيقٍ غريب
يَمتصّونَ زهراتِ الرّحيلِ،
والجنونِ والأفولِ كالنحلِ فوقَ
تُويجاتِ الأزهارِ البريّة.
أولاءِ لا مكانَ لهم في هذا الموكبِ الجنائزيِّ
فلا رحيقَ، لا أزهارَ، ولا أحبارَ،
إلاّ سوادًا أعظمَ في تابوت.

- ٦ -

الموكبُ يتقدّمُ في طريقٍ لا تَصلْ
ستتحوّلُ المسيرةُ إلى مقبرة..
أو نحمل الجثمانَ إلى ثلاّجةٍ كبيرةٍ
في مدينة الطبّ
استُوردتْ أخيرًا لاستيعابِ العددِ المتزايد
من الجُثث التي تتساقطُ هنا كلّ يوم.
وقد يفكّرُ البعضُ بالتحنيط
للاحتفاظ بها وعرضها في إحدى الساحات
أو في ضريح مُعدٌّ لها.
لكنّ النشيد ليس تُوتْ عنْخ آمون
ولا لينين
ولا هو ماموثٌ أو إلهٌ خرافي،
وهو بفطرته يرفُضُ أن يُحشى
لا بالقَشّ ولا بالقطن ولا حتّى
بريشِ النعام،
ولا يصلُحُ جسدُهُ للفزّاعات
في الحقولِ والبساتينِ لإثارة الرُعب
في أسرابِ الجراد التي تَنهشُ
حُقولَ القَمحِ والرزّ،
في سنواتِ القحطِ جنوبًا
والتي نأكُلُها في آخرِ الموسم
اشتهاءً وانتقامًا.

- ٧ -

لا بُدَّ من العُثورِ على المكانِ المُلائم
لأنّ اللامكانَ في الموتِ هو التحدّي الأكبرُ
هو شَكْلُ الانتصارِ الذي يحلُمُ به العدمُ
في اشتباكه بالديمومة؛
اللامكانُ هو العينُ اللانهائيّةُ
التي تَسخرُ من كُلِّ حدودٍ ووجود.
لم يبقَ أمامَنا إلاّ أن نُلقي به في دجلة؛
خاصةً هذه الأيام
حيثُ اعتادَ البغداديّون
رؤيةَ الجُثث العائمة في النهر
يلتقونَ بها في نُزُهاتهم النادرةِ على الضّفاف

أو في السَهَرات التي اختَفَتْ بالكاد
في شارع «أبو نؤاس»
أو في قوارب النزهة أو الصيد
عندما يخرجُ بعضُها للصيّادين في الشباك
مع الأسماك والأحراش النهريّة؛
سَمكٌ لم يألَفْهُ حتى المعمّرونَ منْ بينهم!
لكنّهُم سيقولونَ لأبنائهم إنّهم شاهدوا
سمكًا من سُلالةٍ أسطوريّة
يَطفو مثلَ النيولوفرات ولا يعرفُ العوم؛
أهمُّ صفاته اللااكتراث
والنظرُ المسمّرُ في اللامكان
هذا إذا احتفظَ برأسٍ أو بعَينين؛
سَمَكٌ يمتازُ بقُدرةٍ غير مألوفة
على الاستسلام والتآخي مع التيّار ـ
وهذا ما لا تُحسِنُهُ كلُّ الأسماك
حتى الصغيرةُ منها:
فهي تُقاومُ بحراشفها السَوْرات
تلكَ طريقتُها في عدم الانتهاء
مع مَصير النهر،
أي السقوطُ في المصبِّ
هناك حيثُ لا تَقدُرُ على الائتلاف
مع المياه الغريبة والمُشبعة بالأملاح،
ولهذا تُفضّلُ الخروجَ من الماء
ولو في الشباك.

- ٨ -

الدفنُ في المصبّات
بعد مسيرةِ جنّازٍ مائيّ لمئاتِ الكيلومترات
ابتكارٌ عراقيّ.
فالعراقيونَ يعرفونَ بالتجربة
أنّ الجثثَ ليست كالأسماكِ التي تُقاومُ
وتَتَعلّقُ بالمياه العذبة،
بل تَبقى بأمانٍ في حُضنِ الماء
حتى المصبّ.
ليس غريبًا
في بلادٍ كانتْ أوّلَ من اكتشفَ المقبرة
أن تَظهرَ براءةُ اختراعٍ كهذا،
لكنّ هذه الصيغةَ الوطنيّةَ
بالرُغم من نظافتها وحداثتها
لا يُمكنُ أن تأخُذَ شكلَ المثوى الأخير للنشيد
لأنها في تَناقُضٍ حادٍّ مع معنى الماءِ
وقُدسيّته؛
﴿وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ﴾..
كما أنّ أجملَ أغاني النهر
التي تُردّدها الأمّهاتُ في العراق
هي أن توقدَ كلُّ من ضاعَ لها فتًى
أو فُقِدَ لها حبيب،
شمعةً تودعُها النهرَ
شمعةً تصلّي بأضيصها للغائب
حتى تنطفئ.
تُرى،
هل ستَصيرُ الشموعُ على دجلة
توابيتَ عائمةً
والأمّهاتُ حفّاراتِ قبورٍ فوق الماء؟

- ٩ -

لا مثوى، إذن، لهذا الراحل الكبير
الذي أنجبَ شعبًا من الفلاّحينَ والجُنود،
السبايا والفاتحين، الشعراءَ والأباطرة،
اللصوصَ والآلهة؛
هذا الذي أنشبَ في السماءِ
عُيونَ مفترسٍ للغيب،
وفي الأرضِ
أقدامَ مُنْتعلٍ للفُصول؛
أقامَ مدائنَ وحواضرَ ما زالتْ أحجارُها
تُربّي وُعولاً ووُحوشًا
تَعتلي سُدّةَ المصائرِ بين القارّات؛
بنى مأوًى للقمر
ورفعَ مآذنَ وقبابًا وأبراجًا
للآيات وللمزامير؛
صَنعَ من سُقوفِ الجِنانِ
أَسرّةً للأنهار،
وفَغَرَ أفواهَ الصلصال؛
بَسطَ تحتَ أقدامِ الفلاحينَ المتشقّقة
غاباتِ نخيلٍ لا تَعرفُ القحط
وعرائشَ كُروم
مَلأتْ برحيقها أقداحَ البدايات؛
درّبَ الآلهة على اجتيازِ براري
الجُنونِ والعُشقِ والجَمال؛
لوّنَ الغربانَ بالأسودْ،
الحمائمَ بالأبيضْ
والماضيَ بالحنينْ؛

جعلَ الجبالَ والأنهارَ والوديانَ
مقاطعَ وقوافي له،
وخَلطَ البحارَ في والعواصفَ بإيقاعِه.
كان صوتًا لا حدَّ له في أرضٍ
ولا سقفَ في سَماءٍ،
قبل أن يَقتادوهُ في عَرباتِ السبي
إلى كهوفٍ وسراديبَ مُسوّرةٍ
وَضعوا مَفاتيحَها
بيدِ العبيدِ والسَخَرةِ والمارقينْ.
نشيدُ الأناشيد هذا
يموتُ بين نَهرين
غسلتْ عشتارُ بأمواهِهما
أقدامَ القمرِ وجَبينَ الآلهة؛
نهرانِ يَقتتلانِ اليوم:
ضفّةٌ ضدّ ضفة
سَوْرةٌ ضد سَوْرة
وسُنبلةٌ ضد سُنبلة.

- ١٠ -

المسيرةُ تكبرُ
تَعبرُ دجلةَ في جَنّازٍ مَهيبٍ
يتّسعُ لتاريخ هذي البلاد؛
فيها تَحتشدُ الملايينُ من «ذوي الشعور السود»
أولاءِ الذين جاؤوا
- كما وردَ في السُطورِ الأولى للنشيد -
من سُلالةِ الأغربة
بعدَ أن رفضَ جَدُّهمُ الأكبر / الغراب
أن يُطيعَ الإلهَ إنكي الذي أمرَهُ
أن يبذُرَ كُحلَ أميرٍ أور في حديقةِ الملك
ليُهديه بمُناسبةِ تَتويجه نخلةً،
ستكونُ أعظمَ الأشجار؛
إلاّ أن الأبَ الغرابَ تَمرّدَ
ورمى البذارَ خارجَ الأسوار
فاستحقَّ عليه العقابُ
أن يُمسخَ فلاّحًا للعنايةِ بشجرته المقدّسة.
ومنذُ ذلك الحين،
تملأُ أحفادُه البساتينَ والمدنَ والثُغور
في وادٍ بين نهرين.
لم يكْتفُوا باسماعيلَ أبًا
ولا بقُريشَ أُمًّا.
عاشوا وعمَّروا
في السهوبِ التي تنتعلُها
الآلهةُ والطغاةُ والعبيدْ،
يرضعونَ من أثداءِ الملاحم،
ويقتسمونَ الوقتَ مثل خُبزِ الجياع.
يَعشقونَ ويقتتلون
تَحتَ قبّةِ هذا النشيد..

- ١١ -

وفي ظَهيرةِ يومٍ قائظٍ
يَتصبَّبُ وجهُ الموت عرقًا
تحتَ شمسِ تمّوز التي تُحرقُ حتى الجذور،
وجدتِ المسيرةُ الجنائزيةُ طريقَها
إلى ساحةِ التحرير وسَط بغداد،
هُناك حيثُ رفعَ جواد سليم
على دعّامتينِ منَ المرمر
شاهدًا للحريّة
صار شاهدةً
تَتَربعُ على أكتافها كائناتٌ برُونزيّةٌ
كالأحرفِ الكوفيّة فوق هامات القبور.
هنا ولا مَكانَ سواه
سنَدعُو جواد سليم
أن يُنزلَ أبناءَهُ واحدًا واحدًا عن صَليبِهم،
قبل أن تَسرُقَهُم
قبائلُ الأعرابِ والأفغان لتَبيعَهم
في أسواقِ السُلطةِ العربيةِ والإسلاميّة
هياكلَ لكائناتٍ مُنقرضة
صارتْ ديناصورات أو ماموثات.

- ١٢ -

أيّها الحفّارونَ من كلِّ مكانٍ وزَمانْ،
إعملوا معاولَكُم وفؤوسَكُم،
أقيموا حُفرةً عظيمةً في سماءِ هذا الأوان،
لنُواري الجثمانَ الرافدينيّ
نُهيلَ فوقَهُ
بياضَ الصباحاتِ والصّفحات،
أحبارَ المراثي ورمادَ المكتبات،
نلُفّهُ بأشرعةِ سفينِ الطوفان
ونرفعُ فوقَه طواطمَ الصواري
التي شيّدها في رحلته التي بدأتْ
قبل خمسة آلاف عام.

باريس
٢٠١٢/٤/٢٧